الفصل السادس والعشرون

في بعض عوائد قدماء المصريين والإلماع بشيء من ترتيباتهم العسكرية

كان من عادتهم أن يعبدوا كل ملك يولى عليهم لاعتقادهم أنه الفاعل المختار ووكيل المعبودات الذي بيده الضر والنفع وإعلان الحرب وإبرام الصلح وشريك الكهنة في تقديم القرابين وهو الحاكم المطلق وأشرف الأمة ومولى العباد وسيد الأمراء وصاحب الأمر والمتكفل بسعادة الأمة وكانت الكهنة تقدّسه في محفل عام عند استلامه زمام الملك ولعل هذه العادة سرت الى الإسرائيليين منهم لأنهم اقتبسوا كثيرا من عوائدهم وكانوا يكتبون اسمه في الخانات الملوكية إجلالًا لقدره وتعظيمًا لمكانته ويلقبونه بجملة ألقاب منها ابن الشمس أو ملك البرين أو الأرضين أو صاحب التاجين أو محبوب الآلهة وغيرذلك.

وكان يباح له تعدد الزوجات من الأهالى والأجانب ويتخذ المحاضى والسرارى بدليل أن رمسيس الأكبر الذي طالت مدة حكمه كان له من الذكور ثلاثة وعشرون ولدا وذلك غير الإناث وأن ابنه الثالث عشر هو الذي حكم على سرير الملك من بعده لانقراض جميع أولاده الذين كانوا له من زوجته الأصلية لأن وراثة الملك كانت من حقوق البكري واقتدت أشراف الأمة بملوكهم في تعدد الزوجات على شروط مدونةً عندهم منها أن أولاد الزوجة الأصلية يرثون جميع مال أبيهم بعد موته وغير ذلك بخلاف كهنتهم فإنهم كانوا يقتصرون على الواحدة وكان يباح لبنات الملوك الجلوس على سرير الملك عند عدم وجود الوارث الشرعي من الذكور أو عدم بلوغه سن الرشد وذكر المعلم (روجه) أن أول من أباح حكم النساء على مصر هوالملك (بنهوتر) أحد ملوك العائلة الثانية واشترط أن يكنَّ من العائلة الملوكية وسبب ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ملوك مصر ليسوا كباقي الملوك الذين يحكمون على الناس بل يفضلون عليهم لأنهم من نسل الآلهة التي كانت حكمت على وادي النيل وورثتهم في الحكم وأنهم أبناء الشمس كما هو مذكور على جميع الآثار ولا يسوغ لبناتهم أن تستولي على الملك مع وجود الذكور إلا إذا انقرضوا فيعود الحق في الملك إليهنَّ أولى من استيلاء أحد البشر على تاج أبناء الشمس ولذا جرت العادة أن كل من اغتصب الملك ولم يكن من بيته يتزوج بأحد بنات الملوك السالفين

ليصير ابنه حاكمًا شرعيًا وترتبط سلسلة الملوك ببعضها ثانيا اهـ.

وكانوا يحترمون النساء احترامًا زائدًا و يقولون أنها قرينة المرء ورئيسة المنزل والمربية لأولاده وزيادة على ذلك قد ساوى القانون في العقاب بين الذكور والإناث عند ارتكاب ما يوجب ذلك ولشرفهن ورفعة منزلتهن كانت نساء الملوك يحضرن في المحافل الدينية عند جلوس أزواجهن على منصة الحكم و يشاهدن تقديسهم بعد الكاهن الأعظم ويجعلن صورتهن على الآثار بجوار أزواجهن بعد حضورهن في الجمعيات العامة.

)استطراد لا بأس به) قال بعض علماء الافرنج لا أدري لماذا سقط اعتبار المرأة في جميع بلاد المشرق وهي الحافظة للوداد الأمينة على الأموال الصابرة على البأساء والضراء الخادمة بلا أجر أوليس من العدل التأسي بقدماء المصريين الذي لما أدركوا بفطنتهم أن الحضارة والمدنية لا تتم إلا بحسن معاملتهن والأخذ بناصرهن وعلموا ما لهن في قوام الهيئة الاجتماعية أدوها حقها في الشرف ولم يبخسوها قدرها أوليس من التوحش معاملة المرأة بالجفوة والنظر إليها بعين الاحتقار وتنزيلها منزلة الرقيق فإن بلاد الافرنج لم تزدر بالنساء كبلاد المشرق إلا مدة توحشها وقد أخذت هذه المسألة قبل الآن بنحو قرنين دورًا مهمًا ببلاد فرنسا وكان الجدال فيها علنا على ملأ الأشهاد وفحواها هل النساء من جنس الرجال أم لا؟

فاجاب البعض وأنكر آخرون من الأطباء و ياليت شعري هل كان هؤلاء المنكرون رجالا بين الناس اهـ.

وفي بعض التواريخ المعتبرة أن (ساتنو) زوجة ملك النوبة حضرت على الفور أمام رمسيس الأكبر بعد حضور زوجها أمامه وقبل دخول باقي رجال الدولة عليه وبذلك يثبت أن عوائد قدماء المصريين كانت كعوائد الفرنج سواء بسواء من حيثية الاحترام لهن اهـ.

وقد أتت الشريعة الغراء تحثنا وتنبهنا على حسن معاملتهن والرأفة بهن منها قوله تعالى: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا }

فانظر رعاك الله ما في هذه الآية الشريفة من الأمر بالمعروف في كلتا الحالتين ثم الزجر الذي هو في معرض النهي عن الإعتداء عليهن، وقوله تعالى }وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ{ أي اضربها بأعواد من الحشيش الأخضر ولا تقع في يمينك رأفةً بها وقوله ﷺ ارأفوا بالقوارير أي عاملوا النساء بالرأفة فإن أجسامهن كالقوارير أي الزجاج ولا يختفي مافي هذا الحديث من البلاغة

والإيجاز والتشبيه وجزالة المعنى فإذا علمنا ذلك تيقنًا أن التعدي على هؤلاء القوارير الضعفاء مخالف لأمر الله وأمر رسوله ومن يفعله كان متوحشا بل ملحقًا بالبهائم وإني على غير رأي ذلك الفيلسوف الذي قال له بعض الناس أيُّ الوحوش أظرف فقال له النساء والظاهر أن زوجة هذا الفيلسوف كانت من أظرف الوحوش لعدم تربيتها وإلا فالمرأة التي أحسن أهلها تهذيبها كانت نعم العون لزوجها ولتربية أولادها ولو أرخينا عنان القلم لطال الكلام وخرجنا عن الموضوع (راجع كتاب المرشد الأمين تأليف المرحوم رفاعة بك فإن فيه الكفاية) وكانت الملوك تجعل على رأسها شعرًا قصيرًا وفوق جبهتها ثعبانًا من الذهب لأن الثعبان كان مقدسًا عندهم وكانت الكهنة تتقمش بثياب من التيل الأبيض الناصع أو الكتان النظيف وكان الصوف محرمًا لبسه على جميع الأمة لأنه متحصل من الحيوانات ومتكون من دمها وهو نجس بالإجماع وقال بعض أهل السير أن الذي حملهم على عدم استعمال الصوف هو كثرة وجود التيل والسكان وموافقة لبسهما لجميع فصول السنة وخفتهما على الأبدان اهـ.

و يغلب على ظني أن القول الأول هو الأرجح لأنهم كانوا أي الكهنة يحلقون رؤوسهم وجميع بدنهم بالموس كل ثلاثة أيام مرة واحدة ويغتسلون في كل يوم مرتين صيفًا وشتاءً بالماء القراح البارد والظاهر أن النظافة كانت عندهم من أهم الأمور وقد رأينا فيما سبق التنديد بالبناء الذي لا يغتسل إلا مرة واحدة في اليوم وكان رئيسهم يتوشح بجلد النمر عند أداء وظيفته الدينية داخل المعبد وكانوا يأكلون لحم الأوز وبعض الطير المباح أكله وبعض الخضراوات والبقول والفاكهة ولحوم ما يهدى إلى المعابد من القرابين وكانوا يهذبون أولادهم ويثقفون عقولهم بالعلوم والمعارف كالرياضيات وأخذ المساحة والفلك والتواريخ والمحاضرة وحسن الخط ويلقنونهم أسرار الديانة لأنهم هم الوارثون لعلومهم القائمون بالخدمة بعدهم حتى إذا بلغوا العشرين سنة كانوا على قدم راسخ في أجل العلوم متوشحين بحلية المعارف ومترشحين للخدمة.

وكان المصريون يعقون عن أولادهم بعد الولادة ويختنونهم ويحلقون جميع رؤوسهم وربما تركوا بوسطها خصلة من الشعر ويهتمون بتربيتهم ويعلمونهم احترام الشيوخ وهذه العادة انتقلت من مصر إلى بلاد اسبارطة ببلاد اليونان (راجع قوانين سولون الحكيم).

وكان لبس رجالهم الثياب الواسعة المتخذة من القطن ونحوه و يتمنطقون عليها ويأتزرون بالمئزر لكن كانت هذه العادة تتغير بحسب الأحوال والأزمان ويلبسون الأحذية المتخذة من

الجلد أو من ورق البردي وكثير منها موجود الآن بالمتحف المصري أما النساء فكن يلبسن كالرجال ويخرجن حاسرات الوجوه بلا نقاب ويعتصبن بالعصائب و يتطيبن ويضفرن شعورهن ويرسلنها ذوائب على أكتافهن ويتحلين بالشعور العارية عند الحاجة لها و يتقلدن بالقلائد والأسماط المتخذة من الذهب والفضة أو من باقي المعادن أو الأحجار الكريمة وغيرها أو من المعبودات المتخذة من الخزف أو المعدن ويلبسن الأقراط والخواتم من كل نوع ويكتحلن ويزججن الحواجب وكثير من مكاحلهن باقٍ إلى الآن في أطلال مدنهم القديمة وهي إما من العاج أو الفخار أو الزجاج أو غير ذلك وكانت مرآتهن من المعدن النقي الجيد الصقل كالذهب والفضة والصفر وغيرهما و بالمتحف المصري كثيرًا من ذلك وكانوا يعتنون بتربية أولادهم ويعلمونهم حب الوطن ومثابرة المشاق والتمسك بالديانة ويشربون الخمر رجالاً ونساءً في الأقداح ويستخرجونه من التمر والعنب وهو مصداق لقوله تعالى حكاية عن صاحب يوسف في السجن }إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا { أي أعصر عنبًا لأجعله خمرًا وكانت الكروم والنخيل متوفرة عندهم بكثرة لاستخراج الخمر والدليل على أنهم كانوا يشربون الخمر صورة الوليمة التي في مقابر بني حسن والسكران الذي يحمل منها إلى داره وكانوا يعرفون عمل الفقاع والمزر (البوزه أوالبيره) (أنظر الشكل الآتي) وكانوا يأكلون جميع البقول والخضراوات ويتحامون أكل لحم الخنزير ويستعملون الأصابع والملاعق في أكلهم وكانت ملوكهم تجعل حرسها السلطاني من الأهالي والأجانب أو منهما معًا ويقبلون في جيشهم العساكر المجمكة من المغاربة والنوبة وغيرهم راجع تاريخ شيشاق وابساميطيق وابرياس وأماسيس وغيرهم من فراعنة مصر وكانوا يؤرخون وقائعهم و حوادثهم باستيلاء كل ملك على التخت أو بموته أما ترتيب التاريخ المعروف عندنا فكان مجهولًا عندهم وكانوا مغرمين بالصيد والقنص ويبنون دورهم باللبن أو الآجر وغالبها دور واحد ويحافظون على النظافة ونظام الحواري والشوارع لمرور الأهوية ويدكون أرض دورهم بالشقف وفتات الأحجار ويبيضون منازلهم بالجير وينقشون عليها صورة الأشياء المشاهدة.

وكانت نساؤهم كنساء الفلاحين الآن يتخذن الأسطحة أندية يتحادثن عليها وكان لأغنيائهم العقار والبساتين والوكلاء والكتاب وكان لهم ميل عظيم لخدمة الأرض وتفليحها وهم الذين اخترعوا المحراث والشادوف والنواعير والنورج أو المدراس وبالجملة جميع آلات الزراعة والحراثة كما اخترعوا المعامل لفقس بيض الدجاج الصناعي وقد شاهد هذه المعامل كل من ديودور وأفلاطون وأرسطاليس والقيصر أدريان الروماني عند سياحتهم بمصر وذكروها في ضمن

ما شاهدوه من العجائب وقال بعض متأخري الافرنج أن طريقة عمل الدجاج الصناعي المستعملة بمصر لم تزل مجهولة في جميع أوروبا لغاية الآن وأن سائحي الافرنج الذين يأتون إلى مصر و يشاهدون تلك المعامل يخرجون منها وهم متعجبون وروى بعضهم أن قدماء المصريين لما رأوا بيض التمساح والنعام يفقس في الرمل على شاطئ النيل بمجرد حرارة الشمس بدون تحضين قلدوهما و بحسن ذكائهم صنعوا المعامل وأعطوها الحرارة الكافية فنجحوا ولم ننجح مثلهم وذهب سعينا أدراج الرياح لأن حرارة بلادهم غير حرارة بلادنا اهـ.

وقد تكلم عبداللطيف البغدادي على هذه المعامل وشرحها بالتفصيل في كتاب الإفادة والاعتبار ولكثرة وجودها بأرض مصر ضربنا عن ذكرها صفحا وسمعت من الشيخ حسين المرصفي رحمه الله تعالى أن خالته وضعت بيضًا في طاقة بجوار الفرن ونسيته ففقس بعد مدة وخرجت الأفراخ بمجرد الحرارة التي كانت تصل إليه منه (أي الفرن) وهم الذين قاسوا الأرض بالقصبة ووضعوا لها طريقة الحساب المعروفة الآن بالقاعدة القبطية وضبطوا مياه النيل وأوسعوا حركة الري صيفا وشتاء وكانت السنة عندهم منقسمة إلى ثلاثة فصول وهي فصل النيل أو البذر وفصل الربيع وفصل الحصاد وكانت الحكومة عندهم استبدادية مطلقة والتخت ميراث والملك أب والرعية وكلمته هي الأحكام المرعية وعليه النظر في مهام أمور المملكة وما فيه سعادة الرعية وتقدمها.

أما كيفية سير الملوك بين رعيتها بمصر فهي أن الكهنة سنت لهم قانونًا يردون به جماحهم وضمنوه جميع أشغالهم الخاصة والعامة فخضعوا لأحكامه وعملوا به وكانت حاشيتهم تنتخب من جملة طوائف مختلفة كما أن الخدامات الشريفة كانت تعطى لأولاد الكهنة المعدودين في الدرجة الأولى لأنهم متى بلغوا سن العشرين توفر فيهم حسن التربية وكثرت معارفهم وتخلقوا بالأخلاق الجميلة والخصال المحمودة وشبوا على الأدب والعدل وكان منهم من يلازم الملك و يحضر مجالسه و يمنعه عن الشطط في الأحكام وارتكاب الهوى والزيغ عن اتباع سواء السبيل وكانت جميع أشغاله متوزعة قانونًا على ساعات النهار فجعلوا له الساعة الأولى خاصة بالنظر في الدعاوى وحل المشكلات العامة وبانقضائها يلبس أفخر ثيابه ويتوجه إلى المعبد وعلى رأسه شعار الملك فتستقبله هناك الكهنة وبعد أن يؤدي شطرًا من العبادة يتلو عليه رئيس الكهنة بعض النصائح المستخرجة من كتاب الموتى ثم يشرحها له ويبين فيها ما يجب على الملك وبذلك كان له في كل يوم درس جديد يتنبه به إلى فعل الخير والقيام بما يجب عليه لله و لرعيته أما باقي ساعات اليوم

فكان يستعملها حسب ما هو مدوّن في ذلك الدستور منها ما هو مخصص للاستحمام وما هو مخصص للأكل وأنواعه من لحم وبقول وخضراوات وكية النبيذ الخمر) الذي يجب أن يشربه ومنها ما هو مخصص للرياضة و الاستراحة و غير ذلك فكان هذا الدستور عبارة عن شكيمة توقف غيهم وترد جماح شرههم وإن شئت قلت كانوا مقيدين بقيد الأحكام الدينية فاقدين الحرية لكنهم كانوا آمنين على أنفسهم من الوقوع في الهفوات ومايوسوس لهم بذلك أصحاب الغايات وما تسوله لهم النفس الأمارة بعيدون عن الحدة والغضب واتباع طريق الظلم والعدوان وما ينتج عنهما من الحسرة والندامة كما أنهم كانوا يراعون حرمة القوانين و يعضون عليها بالنواجذ ولا يشتغلون إلا لسعادة الأمة ولا يفكرون إلا فيما يعود عليهم بالتقدم والثروة فلذا كبروا في عين رعيتهم ورفعوا شأنهم وعظموهم حتى أدخلوهم في صلاتهم وعبادتهم وقربوا لهم القرابين بعد موتهم وقال بعض المؤرخين قد استنبطنا من ثروة مصر وغناها وفتوحاتها الواسعة بآسيا وإفريقا وفخامة مبانيها التي كانت كغرة في جبهة أمهات القرى والأشغال الجسيمة التي كانت تباشرها الملوك للمنفعة العامة كالزراعة والتجارة ومن خصوبة الأرض التي ما كان لها ثانٍ في جميع المسكونة وتنوع محصولاتها ومن إتقان الأشغال وسمو درجتها على أنه كان هناك أحكام سياسية عادلة مرعبة وأنه كان هناك ملوك صدقت في وطنيتها وسهرت لرواج حال الأمة التي كانت تقتبس من مصابيح هذه الفوائد كل ما يخطر ببالها ويجول بخلدها فيكلل النجاح مسعاها إلى آخر ما قال ولما تحقق أهل مصر من حسن نوايا ملوكهم لهم قابلوا الإحسان بمثله حتى كانوا يلبسون عند موت كل من مات منهم شعار الحزن ويغلقون الهياكل ويبطلون الولائم والعزائم مدة اثنين وسبعين يومًا متوالية ويقيمون له الصلاة والأدعية رجالًا ونساءً و يحثون التراب على رؤوسهم و يتحزمون بقطعة حبل علامة على الحداد ويمتنعون من أكل اللحم والعنب وخبز القمح وشرب الخمر ومتى جهز المحنطون جثة الملك و ضعوها في التابوت يحضرون بها في نهاية هذه المدة بجوار القبر ويباح لكل إنسان الحضور وأن يشهد بما يعلم من مساويه وما كان يشينه في دنياه وقد أباح القانون للأمة هذه الشهادة أما الكهنة فكانت تهتف بمحاسنه وتذكر مناقبه وتعد للأمة فضائله وما كان له من الخدمات الوطنية والوقائع الحربية والمشاهد التي عادت بالشرف على مصر فإن لم يجدوا من يعارضهم في قولهم حكم الإثنان وأربعون قاضيا بدفنه مع الإحترام اللائق للملوك والدفن بغير ذلك وروى أهل السير أن كثيرًا من الملوك حرم من الدفن بهذا الاحترام لسوء سلوكه وقبح تصرفه فكانت الملوك على جلالة قدرها تخشى هذا اليوم وتسلك سبيل العدل والإنصاف

وتتحلى بحلية الرأفة والرفق بالرعية وزيادة على ذلك كان هنالك ماهو أصعب من هذه الشهادة وهو محو أسمائهم من آثارهم التي شيدوها مدة حكمهم وبذلوا فيها النفس والنفيس وكانت الرعية أحيانا تدمر نفس آثارهم حتى قبورهم ولم تكتف بمحو اسمهم كما فعلوا بآثار الملك أمونوفيس الرابع المعروف باسم (خون أتن) وقد سبق ذكره في الرحلة بتل العمارنة والحاج قنديل وكانت هذه العادة تسري على أموات الأمة كما كانت تسري على الملوك فلذا اتصفت بالتقوى وأكلت الحلال وخشيت سوء العاقبة.

أما الخند فكانت أعظم طائفة بعد الطائفة الكهنوتية وتقسم إلى جملة فرق تسمى بأسماء مختلفة كأسماء المعبودات منها فرقة (رع) وفرقة (أمون) وفرقة (فتاح) وغيرذلك وكان الملك هو الرئيس الأعظم وهو الذي يعين الرؤساء لجميع الفرق من أولاده وأقاربه أو من أولاد أعظم العائلات المصرية مع مراعاة الكفاءة والأهلية والدرجة وكانت الملوك أرباب الغزو تقود الجيوش بنفسها إلى البلاد البعيدة وتدير جميع حركة الأعمال وتقف في ساحة الحرب على عرباتهم كباقي العسكر وهم شاكو السلاح و محاطون بخفرهم السلطاني ورؤساء ضباطهم ويقذفون على العدو نبالهم ويضربونهم بالبلط وغير ذلك والغرض من هذا هو تشجيع عساكرهم وتثبيت أقدامهم في مواقف القتال ومشاركتهم في النصر وقد ذكرنا في بعض الأبواب السالفة ما حصل للملك (سوكن ان رع) وقد وجد على الآثار أن كثيرًا من الملوك كانت تقتنص الأسود وهي صغيرة.

وتربيها ومتى إستأنست وصارت داجنة أخذوها معهم في القتال فكانت تمشي عادة أمام عربة الملك وتقاتل معهم الأعداء وكان من عادة بعض الملوك تربية السباع وإتخاذها بداخل قصورهم . من ذلك ما ذكره المقريزي في الخطط أن خمارويه بن أحمد بن طولون بنى في داره داراً للسباع عمل فيها بيوتاً من زجاج كل بيت يسع سبعاً ولبوة إلى أن قال وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ويقام له بوظيفته من الغذاء في كل يوم فإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه فرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به وكانت له لبوة لم تستأنس كما أنس فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فأن كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائما وأن كان نام على الأرض بقى قريباً منه وتفطن لمن يدخل و بقصد خمارويه لايغفل عن ذلك لحظة واحدة وكان على ذلك دهره قد ألف ذلك ودرب عليه وكان في عنقه طوق من ذهب فلا

يقدر أحد أن يدنو من خمارويه مادام نائماً .حتى اذا أراد الله ان انفاذ قضائه في خمارويه كان بدمشق وزريق غائب عنه بمصر ليعلم أنه لا يغني حذر من قدر) راجع ذلك في الجزء الأول نمرة ٣١٧.

أما جيش مصر فلم يعهد أنه كان به عساكر من الفرسان لأن جميع الآثار واللوحات الحربية خالية من ذلك وربما توهم القارئ أن المصريين كانو يجهلون ركوب الخيل وأنواع الفروسية فدفعا لهذا الوهم نقول أنهم كانوا يعرفون جميع ماذكر لكنهم لم يدخلوه في جيشهم والدليل على ذلك أنه وجد في كثير من النصوص الأثرية صورة فارس يركض جواده ونجاب يعدو مسرعاً بفرسه وهو قابض على قراطيس من ورق أو مكاتيب ليس لها في محل لزومها ووجد أيضا صورة أجنبي يعدو بفرسه وهو بلا سرج فراراً من الموت راجع لوحة الأسلحة الآتية .أما ماذكرته التوراة في الفصل الرابع عشر من سفر الخروج من أن فرعون غرق في البحر مع خيله وفرسانه وعرباته فهذا لا ينافي عدم وجود جيش من الفوارس لأن الخيالة التي كانت معه كانت من الأهالى المتطوعة لا من الجيش وقال) شمبليون فيجاك (ما علمنا أنه كان لمصر عسا كر خيالة وأن الغرض من الفرسان المذكورة في التوراة هم راكبو العربات لا راكبو الخيل وأن التوراة ذكرت في موضع آخر أن فرعون غرق في البحر بخيله وعرباته وفوارسها أي المقاتلة الذين كانوا عليها إلى أن قال ويؤيد صحة ماقلناه وهو خلو الجيش المصري من جند الخيالة كيفية تربية العساكر وتمريناتها المختلفة المنقوشة على الآثار وجميعها مشاة ولم نر للخيالة عليها أدنى ذكر وسكوتها دليل كافٍ على عدم وجودها به اهـ.

وكانت هذه التمرينات عبارة عن مصارعة ومنازلة مختلفة النوع والشكل فتارة ترى المصارعين في هيئة الهجوم أو الدفاع وتارة في هيئة الكر والفر يتناوبان ذلك بالدور والترتيب فتراهما يخفضان ويرتفعان وتارة يقعان ويقومان ويشتبكان ويفترقان ويغلب أحدهما الآخر فينهزم المغلوب ثم يعود غالباً و يستعمل كل واحد منهما ضروب المخاتلة والمراوغة والحيل والقوة وهما عراة الأجسام ليس عليهما غير منطقة عريضة تستر سوآتهما) أنظر الشكل الاتي . وكانت تربية العسكر وتمريناتهم تستغرق المدد الطويلة يدخل فيها جميع القواد و الرؤساء كما يدخل فيها جميع العسكر على إختلاف طبقاتهم وكانوا يعوّدونهم من حين شبيبتهم على المكافحة و المقارعة ومنازلة بعضهم بعضاً ويعلمونهم قواعد الحرب وأركانه حتى يشبوا على حب القتال وإقتحام المعارك و كان جميع أبناء الجند تتعلم كآبائها وتتمرن في حداثة سنها على إجراء الحركات العسكرية لأنهم هم الوارثون

لآبائهم القائمون بحماية الوطن بعدهم ولايصرح لأى إنسان منهم أن يشتغل بحرفة أخرى مادام يقوى على حمل السلاح وهو خال من جميع العاهات والأمراض وكانت الأسلحة عندهم هي الحراب والمزاريق والرماح والقسي والنشاب والسيف والحسام والخنجر والدبوس والنصل والبلطة والشاطور والسكين والدرق والدروع والزرد والمخفر أو الخودة) كما في الشكل الآتي.(

ويرى على بعض الآثار كيفية المعسكر المصري وهو مكان من الأرض مربع محاط بأخشاب وأوتاد من كل جهاته وعلى بابه الديدان) خفير النوبة أو النوبتجي (وفي الجهة المقابلة له خيمة الملك أو القائد العام مضروبة و بجوارها الأسد المستأنس رابض ويداه مغولتان) مربوطتان (وبجواره خفير من العسكر قائم و بيده عصاً طويلة ثم مضارب الضباط وخيامهم وعلى جانبى باب المعسكر صفوف من الحمير والخيل بلاسروج وأمامها العلف متوزع على الأرض أو في المداود (المعلف) ثم صفوف من العربات الحربية مرتبة في الجهة المقابلة لصفوف الحيوانات .أما الجهة الخالية ففيها السروج وأطقم العربات ومهمات الحملة والرحال والأخلاس والبراذع مربوط بكل واحدة منها سلتان للزاد والمشروب وعلى يمين المعسكر بعض الجند يجري الحركات العسكرية والتمرينات الحربية بعضهم يتريض كأنه فرغ من تعليمه وفي جهة أخرى عساكر الرديف تمارس الحركات والتعليمات وترى الأوامر العسكرية جارية على محور الطاعة والإمتثال وفي جهة أخرى صورة تنفيذ العقاب على المجرمين من العساكر وبعض الضباط فوق عرباتها يطوف على الجند للتفتيش وصدور الأوامر أوبمباشرة تنفيذها وعلى الجهة اليسرى من المعسكر بيمارستان الجند)المستشفي (والبقالات مرتكزة بجواره ثم المرضى من الخيل والحمير والأطباء البياطرة قائمون في خدمتها والطومارجية) خدمة المرضى (واقفة تركب الأدوية والجزع وتسقيها لمرضى العساكر .ونرى حول المربع فرساناً فوق عرباتهم يمارسون حركات التعليم وأركان الحرب وعساكر المشاة في المصارعة فإذا عرفنا ذلك علمنا أن الجيش المصري كان يتركب من صفين فقط وهما المشاة وفرسان العربات الحربية وترى في غير هذا الموضع صورة المشاة منقسمة إلى جملة فرق منها ما لعساكر هادرق يسترها من وسطها إلى رأسها وفي يدها اليمنى حربة أو رمح وفي اليسرى بلطة بهراوة) يد (قصيرة وثيابها أقبية قصيرة وصفوفها متكاثفة بالرجال .وكان أغلب الجيش يتركب من هؤلاء الفرق ومنها المشاة الخفيفة وعساكرها تحمل في يدها اليسرى درقة صغيرة مستديرة وفي اليمنى حساماً أو سيفاً أعوج له قبضة وعلى رؤسها خوذ من النحاس أو من باقي المعادن محلاة من أعلاها ومنها فرقة الرماة أصحاب القوس والنشاب وعساكرها تلبس أقبية طويلة وتحمل قوساً

عظيماً مثلث الشكل وعلى كتفها جعاب للنبل .

هذا مايختص بترتيهم وثيابهم وسلاحهم أما ترتيب سيرهم للغزو فتكون المشاة الثقيلة في القلب وهي مثقلةٌ بالسلاح وتكون العربات الحربية من أمامها ومن خلفها وعلى جوانبها وتكون المشاة الخفيفة في المقدمة وعلى النقط المخيفة ومتي دنوا من العدوّ عقد الملك حفلة جامعة يحضرها جميع رؤساء الجيش وضباطه ويضجون جميعهم بالدعاء و الإبتهال إلى معبوداتهم ويطلبون منهم النصر والفوز على أعدائهم ثم يستلم الملك قيادة الجند ويزحف بهم على العدوّ وتتقدم فرقة من المشاة ومعها النفير يتلوها عربة بها صارى منصوب عليه صورة رأس كبش يعلوها صورة قرص الشمس وهو رمز على معبودهم) أمون رع (كأنه يقود الجيش إلى قتال عدو مصر أو صورة أحد المعبودات الأخرى) راجع نمرة ١ و ٢ من لوحة الأسلحة .(ثم يأتي الملك فوق عربته تحفه عساكر الرماة وضباط الحرس السلطاني وبمجرد ما يصل إلى العدوّ يساجلهم الحرب ومتى تم له النصر عليهم يقوم خطيباً بين ضباطه وهم يقدمون له الأساري من الأعداء ويبادر كل فريق إلى قطع اليد اليمنى من كل ميت من الأعداء وتارة يقطعون أحليلهم ثم يحصونها ويجعلونها حزماً ويقدمونها إلى الملك ليعلم عدد الأسارى والأموات وترى جميع ذلك منقوشاً في معبد رمسيس الثالث بمدينة أبو .

فإذا كان الحرب براً كان الملك بوسط عسكره يقاتل وهو فوق عربته كأحدهم وإذا كان بحرًا تصطف سفن المصريين أمام سفن العدو بقرب الساحل فتجري وتتحرك بواسطة الشراع والمداري والمجاذيف وتصطف عساكر الرماة على الساحل لتساعد من بالسفن من المصريين ويرمي الجميع بالنبل والنشاب على سفن العدوّ ويكون الملك قائماً على قدميه بوسط العساكر البرية يدير حركة القتال ويترك عربته مع باقي متاع الجردة ومتى فاز بالنصر يتبع العدوّ براً و بحراً وينصب القناطر على الأنهار ويمر من فوقها مع جيشه ويدخل بلاد العدوّ ويستولى عليها وتتسلق عساكره على القلاع والحصون ويأمر الملك بهدمها أو بإحراقها بالنار و يسمع قول سفراء العدوّ ويملي عليهم شروط الصلح ويضرب الجزية والمغارم وبين لهم مقدارها وكميتها فتارة تكون من المعادن النفيسة أو من الأشياء النادرة الوجود النافعة أو من أدوات الحرب والأسلحة أو من الحيوانات الأهلية الخاصة بتلك البلاد أو من الأشياء المعدومة من مصر .ثم يجمع قواده ورؤساء جيشه ويخاطبهم بما معناه إبتهجوا وإنبسطوا وليصل فرحكم إلى عنان السماء فأن الاعداء ولت مدبرة من قوّتي وبأسي وقد حاق بهم غضبي وأمتلأت أفئدتهم رعباً من هيبتي فأنهم رأونى كأسد ضارٍ وقد أتبعتهم كالباشق فأزهقت أرواحهم الخبيثة وقطعت أنهارهم فوصلت إليهم وأحرقت قلاعهم وأني أنا الحامي لحمى

حوزة مصر وقاهر المتوحشين أعداءها ثم يختم قوله ويأمرهم بالعودة إلى الأوطان فيمشي الجيش فرقاً فرقاً والملك فوق عربته يقود خيلها بنفسه وهى مطقمة بأجمل زينة لها مجللة بأحسن ما يكون وتقدمه الأسارى وهم مكبلون بالحديد وتحمل بعض ضباطه المظلات على رأسه ويدخل في موكب حافل مدينة طيبة وتكون الأسارى خلفه ومتى وصل إلى المعبد ترجل ودخل وأثني على معبوداته وشكر لهم هذه اليد البيضاء حيث منت عليه بهذا الفتح ثم يتوجه إلى داره و يعين يوماً للتبريك . فتأتي إليه الوفود من أرجاء المملكة وبعدما يجتمعون في قصره يخرجهم إلى المعبد يتقدمهم رجال الموسيقي ومعهم الشبابة) الناي (والنفير والطبل والمغنون والمرتلون و يتلوهم أهل الملك وأقاربه ثم القسس ثم رؤساء الدواوين ورجال الدولة ثم ابنه البكري أو الوارث للملك ويمشي أمام الملك وهوحامل البخور ثم الملك في محمله المحلى بأنواع الزينة يحمله أثناعشر ضابطاً من قواد الجيش وعلى رأس كل واحد منهم ريشة من ريش النعام والملك في زينته وأبهته الملوكية جالس على التخت الملوكى فوق المحمل وعليه صورة أبى الهول علامة على القوة والتدبير ثم صورة سبع علامة على الشهامة وأقتحام الأهوال وتمشي أولاد الكهنة حول المحمل وهم حاملون قضيب الملك وقوسه وباق سلاحه والإشارات والعلامات الملوكية ثم يتلوه باقي الأمراء وكبار الكهنة وضباط الجيش وهم مصطفون صفين وحول الجميع فرقة من العساكر المشاة تمشي كالحلقة المفرغة لتمنع الناس من أن تتخلل هذا الترتيب .أما باقي الناس فتمشي حول الحلقة ومتى وصل إلى باب المعبد رحل ودخله وقضى به ما وجب عليه وتقابله الكهنة وتجري رسومها المعتادة ثم يخرج ويعود إلى قصره كما أتي أي على هذا الترتيب الذي ذكرناه وبعد ذلك ينفض الجمع ولولا الإطالة لشرحنا جميع مايفعله بالمعبد) راجع الرحلة العلمية في معبد رمسيس الثالث الذي بمدينة هيو - أنظر الشكل الآتي.)

ومن البديهي أن جميع ماذكرناه هنا لم يكن عادة مطردة في جميع أيام الفراعنة بل كل وقت

كان يعطي حكمه وكان من عادتهم أنهم يجعلون مع كل من مات من أفراد الأمة حجراً مكتوباً عليه اسمه ولقبه واسم أبيه وبعض أدعية لمعبوداتهم ومن لم يكن معه هذا الحجر كان كمن لم يخلق والظاهر أنهم كانوا ينفرون من حلي الميت وما كان يستعمله من الآت حرفته حتى كانوا يدفنونها معه.

كما كانوا ينفرون من رؤية الأجانب ويتشاءمون من طلعتم مالم تلحهم الضرورة لإستخدامهم عندهم.

إستطراد

حكي أن أحد الوزراء كانت جالساً وحوله بعض العلماء والظرفاء فجرى بينهم ذكر الشؤم والتشاؤم فقال الوزير لمن حوله أني لم أتشاءم الإ من يوم الأربعاء حتى أني ألازم فيه داري ولا أخرج منها فقال له أحد الفضلاء ممن كان بالمجلس أنه يوم مبارك وهو اليوم الذي انتصر فيه صلى الله عليه وسلم في غزوت الاحزاب فقال الوزير له نعم ولكن بعد ما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فقال له أنه اليوم الذي ولد فيه يونس بن متى عليه السلام فقال الوزير نعم ولكن التقمه الحوت اهـ.